

نبيل محمود

تفاحات إيروس



قصائد ونصوص

دار ومكتبة الأمير
بغداد - شارع المتنبي

تفاحات إروس

قصائد ونصوص

تفاحات إيروس

نبيل محمود

الكتاب: تفاحات إيروس

المؤلف: نبيل محمود

الناشر: دار ومكتبة الأمير

الطبعة: الأولى 2015

لوحه الغلاف: بابلو بيكاسو

حقوق الطبع محفوظة

حول إيروس

إن عنوان تفاحات إيروس يضمراً عنواناً ثانوياً هو ثاناتوس، وقد كان القصد من إضمار هذا العنوان الثانوي، هو التأكيد على الانحياز للحياة والحب والجمال، لكن دون إغفال بشاعة حضور الموت والحرب والقيح.. وبالرغم من حضوره الكريه يظل ثاناتوس لحظةً منطقيةً وضروريةً للتحقق الإيروسى! فكل لحظة من لحظات الوجود تتجدد وتتطور، بجدلية الحياة والموت إلى الحدّ الذي تتخذ فيه شكل المفارقة المأساوية، كانعكاسٍ للتحوّل الأبدي بين الوجود واللاوجود. لقد رسخ في الأذهان أن الإيروسى ينهمك بالمستوى الحسى المباشر ولا ينفث على مديات واسعة وامتدادات الحياة الرحبة. فإن بدا وكأنه ينشغل بأبسط الرغبات الحسية فهو كذلك يتقصّد أقصى وأعرق الرغبات العاطفية والجمالية بتأكيد الحياة بكل ملابساتها وتشابكاتها وإشكالاتها الاجتماعية والتسلطية. إنه المحرك الأساسي في النزوع إلى التحقق الكلي والجمالي للإنسان..

((بيد أن أفروديت لن تصبح مطلقاً ربة الخصب بامتياز. إنها تمجد وتدافع عن الحب الطبيعي والقران الجسدي. وفي هذا المعنى، يمكن القول، إنه بفضل أفروديت، وجد الإغريق الخاصية المقدسة للدافع الجنسي الأصلي. إن المنابع الروحية الثرة للحب ستحكم من قبل وجوه إلهية أخرى، وفي المقام الأول، من قبل إيروس.))

ميرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية 1

((فمن هذه الأضحية الدموية الأولى التي قدمت لآلهة روما، سيحتفظ الشعب دوماً بذكرى مروعة. فبعد البناء بأكثر من سبعمئة سنة سيعتبرها هوراس أيضاً كنوع من خطأ بدئي يتوجب بالضرورة لنتائج إثارة خسارة المدينة بدفع أبنائها للتذابح فيما بينهم. وفي كل فترة حرجة من تاريخها ستتساءل روما بألم، معتقدة بشعور وطأة اللعنة عليها. وإضافة لهذا أنها في نشأتها لم تكن بسلام مع الناس، ولم تكن بسلام مع الآلهة،))

ميرسيا الياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية 2

((... فهو يتطلع إلى الجميل والرائع، إنه ماهر وجريء، "صياد ماهر يحيك الدسائس دوماً"، ساحر فاتن. وبالإضافة إلى ذلك، فهو دائماً واقع في المنتصف بين الحكمة والجهل، ويتميز بحبه للجمال. وأخيراً، فالحب هو سعي إلى الأبدى، ويرتبط بالخلود.))

فياتشيسلاف شستاكوف، الإيروس والثقافة

((إن الجمال سوف ينقذ العالم.))

دوستويفسكي، الأبله

ضفاف

هناك عند الضفاف

بين البرّ والماء

والضوء والهواء

تختلط العناصر والأشكال

يسيل الحصى ويتعضّى الطين

تتألأ العتَمات وتصدح الغمغمات

يا للجمال المنثور

يساقط من عربات الزمان المسرعة

تلملمه فاتنة العصور

المرأة التي تسكن عند الضفاف

بين الحلم والحقيقة

كالظلال المتشابكة في بستان

كغموض العطر الذي يفوح من حديقة

أخفق في تهجئته

أخفقُ في تسميته
أخفقُ في أنْ أنسبه
إلى هذه الوردة أو تلك الشجرة..

كذلك أخفقُ أنْ أسمِّيكَ
أيّها الجمال الكثيف
كأسرابٍ من أسرار
يعتقها الليل فجراً
في أجنحة الفراشات
في خرير الجداول
في رقص السنابل الذهبية
تحت الحرير الأزرق
للسماء البعيدة..

المرأة التي تسير
حفيف ألوانٍ وأجراس أعياد
تنثر حبّ السرور
وفي باحة الروح
يحطّ الحمام ويطير

ويتناثر ريش الحبور
ذراعها أرجوحة طفولة
والتفاتها نداءات مبهمة
انحناءات جسدها إفشاءات ملغزة
الخيال يفاقم المعنى بين الرؤية والرؤيا
تلك المرأة تشعّ هناك
وأصداؤها تضجّ هنا..
يا من تشتعلين فتنةً عند انطفاء النهار
لا أجد ما يطفئني
حين يندلع العري في ثياب الليل..

أيها الرمادي

عند الضفاف وتحت الظلال
بين ارتعاش الصوت وارتجاف الضياء
حيث يحتفي البرّ بالماء
يغمرني الضباب الرمادي
ذلك الحياذ الخادع
ألمح في أعماقه تنوّع الألوان
وفي سكونه أسمع تدفق الأنغام..

كنتُ ألهو بالعابي الطينية
وفوق ملمسها الطريّ
أنقش منمنمات الطفولة
وأرسم طرقاً ملوّنةً وكائنات
تسكن الفنارات وتحلم بالبحر..

دمى الطفولة تتفتّت كالرمال

والأحلام تذوب في الدروب
وفيما الزمان يفضي إلى التجاعيد
شيخٌ يثرثر ويمضغ تبغ عمره
في عتمة بيتٍ متهاكٍ..

زيارة سرية

عندما حدّقتُ في عينيها
أخذتني نحو الأعماق
لمحتُ فيهما.. مسكناً يتموّج
خلف ستائرٍ من خيال الماء
كان الوقت فجراً والدرب ضباب
الجمال الكثيف متشابك الأغصان
على جانبي الطريق..
تفاجأ سربُ عصافيرٍ
وتفرّق متوجّساً من وقع خطاي
مضيت في ممرٍّ من ورود
كان سقف المدخل من شفق
والصالة باحةً خضراء
السجاد حقول قمحٍ وجداول
والجدران آفاقٌ من زرقةٍ

جذبتني لوحةً زيتيةً على الجدار
غابةً تغفو في عمقٍ رمادي
وتلامس سماءً زرقاء
أشجاراً.. أشجاراً.. أشجاراً
كلّما اقتربت تكبر وتطول
أقربهنّ كانت مشقوقة اللحاء
وصمغها العسليّ يسيل
تتحني على جدولٍ خجول
كان طعم الماء عذباً
تفوح منه نكهة العري البرّي
لامرأةٍ تغسل جسدها
من ثرثرة الرجال
والثوب الأحمر مهمل
على شجيرةٍ إلى يمين اللوحة..
استدرت ودرت حول نفسي
أبوابٌ كثرٌ بلون اللوز
دلفتُ إلى غرفٍ دافئة

تشعّ بألْفةٍ حميمة
وأقواسِ المواقِدِ تعكسُ الوهجَ الأحمر
لجمرٍ يطقطقُ بنغمٍ متكسّرٍ
الغرفِ بمرايا زنبقيّةٍ
ومفارشٍ مطرّزةٍ وثيرةٍ
ومنحوتاتٍ وأقنعةٍ وعجائبٍ إفريقيةٍ
من خيالاتٍ مستشرقين من بلاد الثلج..
ناداني همس الباب الأخير
والسلمُ دحرجني إلى قبوٍ عتيقٍ
رفوفٌ طويلةٌ لمخطوطاتٍ من ورقٍ شاحبٍ
يفوح برائحة الكأبة
قرأتُ العناوين في الضوء الشحيح:

الموءودات

المملوكات

السبايا

الحريم

▪

إلخ

عرفت أنه تاريخ النساء (الأخر)

عجبتُ كيف تبتسم النساء

وفي أعماقهن كل هذا النزيف..!؟!

خرجتُ مسرعاً من ذلك القبو

ابتعدتُ وأنا أتأمل بأسى

سيدةً غائمة العينين

تذوي في جمالها الغامض

ما أجوف الرجال!

يختصرون المرأة في أنثى

ويوارون فيها الإنسان..

كائنات الحبر

بين وحشة العالم والحبر القاتم
ترتعش الأضواء وراء ستائر الفجر
تُضِلُّني الظلال ويخاتلني الخيال
رغوة الكآبة تدور في الكوب
فوق القهوة السوداء
بخارها يشتت سحابة النعاس
والزبد البني يلدع شفتي..
بين البنِّ والنعاس
تتسلل كائنات الليل من غابات النوم
الفضاء ضبابٌ والوقت هلوسةٌ
والغيمة البعيدة تتلاشى في الغبش
غيمةٌ بلا مطرٍ كذبةٌ بيضاء...!
أرتشف رشفة صحوٍ وأقلب الورق الأبيض
أغمس بقايا الأحلام في الحبر

الحبر.. هذا البحر الغامق

مشبعٌ بعبقٍ غامض

تختلط فيه غرائب الأشياء والأشكال

ألواحٌ قاربٍ فسخته رطوبةُ الأزمنة

مجاذيفٌ متكسرة

أمواجٌ ماضٍ تنفتها عواصفٌ فينيقية

حيتانٌ زرقٌ تحاصر موانئ رمادية

أسماكٌ فضيةٌ تداعب أطراف جنيةٍ منسية

بقايا الأمس تصطبغ بحمرة الشفق

والخلايا تنفض بقيةً من شبق..

التثاؤب يمطني حتى المساء

أعصر الليمون فيلسع عينيَّ رذاذ المجون

قضمة التفاحة الحمراء

تغمر الروح بنكهة حواء

تنزلق الزلاجات كالمسرات

ويذوب ثلج الذاكرة

في كأس النبيذ الأحمر

تسْمُقُ سنابلَ الأشواق
فتلمع حَبَّاتٌ ذهبيةٌ في حنطةٍ وجنّتين
ينفتح الأفق كمروحة فرح
ترسمها راحتا يدين
وعند احمرار الليل
تتساقط أوراق التوت
وتُشعل القبلات أعشابَ العناق
فتندلع الأفراح كالألعاب النارية
ما يشعّ لا ظلّ له
يسقط بعض الشرر
فوق بياض الورق
فترنّ أجراس الكلمات
وتنطلق العبارات
ويطبع القلب أشواقه
فوق البياض اللامتناهي..

الجثة

(اليد الخفية)⁽¹⁾

تخفق المدينة

كما يتكّدس البشر

في علب الليل

يترسّب الحزن الأزرق بين التجاعيد

الدرب ليس طويلاً

بين المقبرة والمدينة

الفلاحون خلفوا وراءهم حقولاً جرداء

ونزلوا ليقتاتوا خضرة المدينة

الشكر لله الرحيم

لم أتعب في بحثي كثيراً

فها هي الجثة هنا!

(1) تعبير شهير لأدم سميث.

هذا بيتي إذاً

وهذا هو وطني...!

ليست (جثة)⁽¹⁾ بودلير التي نهشتها كلبه

وقضمتها الديدان

ولم يخلف جمالها المتآكل سوى قصيدة..

فهذه جثة نهشها الإنسان!

فيما البشر يهرولون

من صباح البذرة

وحتى مساء الثمرة المتعفنة

المسافة طويلاً

بين اللقمة والقمامة..

الحب مساحيق تنتجها مصانع التجميل

لا أحد يتعرّف إلى نفسه

وفي دولاب الملابس

خلف القمصان والسرراويل

(1) إشارة إلى قصيدة بودلير (الجيفة - الجثة).

ووراء البدلات الأنيقة والمناديل
والخواتم والعطور..
تقبع في أقصى الظلمة
صورة (دوريان جراي)⁽¹⁾ الأخرى
صورة كل أحد
الصورة التي لا يحدث فيها أحد..

كلما نظرتُ في المرأة
رأيتُ غريباً يحمل جثتي..
والنمل الزاحف يقوده
إلى تلك الحفرة الصغيرة
الحفرة التي تغلق السماء
وتتفتح على ظلمةٍ عدمٍ لامتناهٍ..

(1) إشارة إلى رواية أوسكار وايلد (صورة دوريان جراي).

تفاحة أفلاطون

منذ أن شطر أفلاطون التفاحة⁽¹⁾

والحبّ يشرب نخب المأساة

ففي كل ليلة عرس

تسقط قطرة دم

عند لمس العري

ودعك الأزهار الحمر

وهنك أستار الرغبة

وقضم الثمرات..

ما أشهاها

وما أبهى لونها تلك التفاحة اللامعة

الدودة تمضغ قلبها

وهي بعطر الغواية

(1) المقصود ما ورد في محاوراة المأدبة لأفلاطون.

تستدرج الأفواه وتلتهم الكون..

ترحف الأفعى

وتلتفّ حول جذع الوصايا

وتنفث السمّ - الدواء

تفرّ الملائكة ويقهقه الشيطان

تهزّ الشجرة فيساقط الثمر الشهيّ

يلتقط الجوعى طعام الآلهة

يلتهمون الإثم بنهمٍ

ويتراشقون باللعنات..

بعد اصطباغ الغروب بالشفق

وترنح المخيِّلة ببخور الشبق

تأوي الأجساد إلى الليل

وتشهق الرغبات في أعماق الخلايا

وعند التماع البروق واندلاق الغيوم

يجهش الزفير في الأحشاء

وتلمع قطرات النبيذ الأحمر

فوق شفاه الصحراء..

يا من اختر عتم الخطايا

وزيّفتم الإنسان

ثم غلّفتم الكذبة بالغفران

لا عظة منعت الشر

ولا نفي الجمال

منح الجمهورية⁽¹⁾ السلام..

(1) إشارة إلى جمهورية أفلاطون.

أسئلة

الفيلسوف يعكف على ترتيب الأسئلة

وكاهنٌ يختلس سمكةً مقدّسة

من طعام الآلهة

ورغيفين من شعير الفقراء

الشاعر لم يكن يوماً في وئام

مع (آلهة الطعام)⁽¹⁾

وأفواه حائرةٌ بين الأغنية والرغيف

وحده الجنرال لم تقلقه المعضلة

فقد كانت بين يديه القنبلة!

(1) من قصيدة الشاعر محمد مهدي الجواهري (تنويمه الجياع).

نامي جياع الشعب نامي حرسك آلهة الطعام

القناع

تقتنع بقناع الجميع

واحجب سحتك الفردية

فهذه حكمة القطيع

وحده الراعي يعرف دروبها وشعابها

وحقول العشب ومواقيت السقي

فبحزمة عشبٍ وبجرعة ماء

يصنع الراعي من المراعي أعظم وطن

ومن القطيع أطيّب شعب

منذوراً لأعياد الذبح..!

ليلة سقوط الدمعة

ليلة سقوط الدمعة⁽¹⁾

انحنت الوردة

ولامست بركة الحزن

في قلبي

رفعت الوردة البيضاء

لكنني لم أفلح

بوقف نزيف جرحها الأحمر

أغنية شعبية تنوح في آخر الليل

((الْيُونُ تَالِي اللَّيْلِ لِأَبَدٍ عَلَيْهِ سَبَابُ

لُؤْ دَهْرٌ مُوجِرٌ بِي لُؤْ فَاكِدٌ أَحْبَابُ))⁽²⁾

(1) ((لم يعرف المصريون سبب الفيضان، وتصوروا أن ذلك راجع إلى هيجان النهر نتيجة سقوط دمعة الإلهة ايزيس فيه في ليلة معينة تسمى ليلة سقوط الدمعة))
السير اي. أ. واليس، الساكنون على النيل، ت. نوري محمد حسين، بغداد 1989.
والحرب مهما حاولنا تفسيرها كتعبير عن مصالح متناحرة، تظل من الكوارث غير القابلة على التعقل، ما دمنا لا نستطيع منعها، لذا ستظل يكتنفها ضباب التصور الأسطوري..

(2) راجت في سبعينيات القرن العشرين أشرطة الكاسيت لأغنيات شعبية بعيداً عن الإعلام الرسمي. ومعنى البيت هو (الذي يئن ليلاً حتماً لأسباب = إمّا جاره (ظلمه) دهرٌ أو فاقد أحباب)

كان مرآب المدينة يغصّ بالجنود السمر..

وعربة بائع (حساء العدس)⁽¹⁾

تُذكّر برائحة الخنادق والتكنات

وسخونة الرصاص الأعمى

بائعة الشاي المتلقّعة بالسواد

تصبّ الشاي الأسود

ووجهها يذوب كالسكر الأبيض

في القدر الساخن..

ليلة سقوط الدمعة

يطهو الحكام شعوبهم

في قدر الأوطان

فالتاريخ جائع شره

لا يحيا إلا بالتهام حساء الشعوب..

قال الجندي المرح لرفيق السلاح المتجهّم:

- هيّا بنا.. فالخبر السعيد

(1) حساء العدس عند الفجر كان وجبة الطعام الرخيصة للعمال والجنود في مراتب المدن. وكان مع الشاي وجبة الفطور الصباحية الأولى للجنود في الجيش.

أننا لن نمكث طويلاً
في هذا العالم الحزين!
وعند الفجر
حملتنا الحافلات
بحقائبنا الصغيرة
وأحزاننا الكبيرة
صوب الجبهات..

عالم ملفّق

توكّأتُ على عكّازي
وبادرتُ إلى عبور الشارع
في الرصيف المقابل كانتُ..
حدّرتها من الليل العاصف
خشيتُ أن تقذفها العاصفة بعيداً
هي ومكياجها وفتانها اللامع
وشعرها الطويل الجميل
المستعار...!

كم أنت ملفّقٌ أيّها العالم؟

* * *

كادت أن تدهسني تلك السيارة الفارهة
وهي تمضي مسرعةً من المجمع الحكومي
صوب ضواحي المدينة
كان موكب السياسي الأنيق

يحمل الملابس الصينية وأغطية الشتاء

ليتسوّل أصوات الفقراء

فالانتخابات باتت قريبة جداً!..!

كم أنت مَلْفَقٌ أيّها العالم؟

* * *

أحصيتُ ما تجمّع في جيبِي

من نهار التسوّل

أخفيتُ عكّازي في المكان المعتاد

خلف حاوية القمامة

وانطلقتُ مسرعاً إلى أقرب حانة!..!

كم أنت مَلْفَقٌ أيّها العالم!؟

البلورة السوداء

سمع الكثير من الحكايات

عن سماءٍ وأنهار

عن حقولٍ وأشجار

لكنّه لم يدرك معنى اللون الأخضر

أو تدرّجات اللون الأزرق

في مرايا البحار

وأنصت لقصصٍ طويلة

عن عشاقٍ تلاقوا وافترقوا

عن جيوشٍ وحروب

لكنّه لم يفهم أسرار اللون الأحمر

شمّ العطور والروائح

وحفظ كل الأسماء

لكنّها لم تفسّر كنه قوس قزح

تذوّق كل أنواع الطعام

وميّز بين طعم الملح والسكر
لكنّه لم يتمثّل أبداً
مغزى اللون الأبيض
تلمّس كل السطوح والحجوم
وأحاط بكل تفاصيل الخشونة والنعومة
لكنّه لم يتصور ماهية الظلال
لم يكن يبصر غير السواد
كان الأعمى
يتلمّس أعماق روحه
ويبحث، عبثاً، عن الألوان والظلال
لرسم الحكايات..

بحث

كان لا بدّ من الخروج

للبحث عنه!

فتحتُ الباب وكانت الخطى

تتلمّس أرضاً ثابتة لوطنها

كانت الهزّة هائلةً..

ركضنا نحو بداية الزقاق

وعند الشارع الرئيس

رأينا الأشلاء متناثرةً

والمكان متفحّماً

والفضاء دخان..

وجدتُ حفرةً واسعةً من العدم

لكنّني لم أجد الوطن!

الخطيئة الأولى!

بين البحر والسماء

كان التبايع العناصر في سؤرة الصيرورة

وتكسر الأمواج فوق صخرة الكينونة

على وقع عصف الرياح الأولى

وتفجر الألوان البكر ورعدة الأصوات

وتشكل الملامح وخلوص الإنسان..

اتحدت العناصر بجنون

فبدا غلواء الأواصر كالمجون

خالط الخجل شجرة الخطيئة

وكانت ثمارها منذ الأزل

أشهى من كل ذنب

وأجدى من أي غفران..

* * *

بين البحر والسماء

تعلمتُ أنّ للزرقة لون السفر

وفي صحائف عينيكِ

قرأت أبجدية النماء الخضراء

رأيتُ تبسم البراعم وتضاحك القداح

ورقص الأشواق فوق خيال الماء

لمحتُ، في الليل، أنوار عينيكِ

فاحترقت بلهفتها فراشاتي..

طعمكِ العسليّ

علمني عذوبة الاستغراق في مفاتن حواء

وقضم المباهج من حدائق التفاح

ولذة الرقاد عند منابع الأسرار

لم نصحُ من سكرتنا

إلا وقد ابتكرنا كل الأسماء..

الصخرة الرمادية

من بيتٍ عتيق

فوق صخرةٍ رماديةٍ

أشرف على البحر

وأترقب الليل الشهيّ

القمر العاري يسبح بجسده الأبيض البض
وبشبهه اللامع يضاجع حُلْكة أمواج البحر..

في وحشتي القاتمة

في البيت العتيق

أعانق ومضة العري الطريّ

وأراقب مرايا الأشواق المتكسّرة

فوق سطح الماء

وهي تمضي بالرغبات المتكسّرة

وتتلاشى في الأفق البعيد..

وجه مكسيم غوركي

عينك ضيقهما الألم والضوء الشحيح

ولم تُخذعا بأيّما عيد

وجهك أخاديد وتجاعيد

كأمواج روح متوجّعة

تسكّعت في تعاسة القاع الروسي

في دروب روسيا الثلجية

في دروب روسيا الخلفية

عبرت غابات الخريف وحقول الشتاء

"سبيريا" ليست سحنةً روسيةً حصرًا...!

تجهّمت في أزقة السخام وأحياء الممسوخين

بين صافرات المصانع وهتافات المسحوقين

هل تبدّدت التعاسة

من أحشاء العالم الشقيّة

والأحياء المنسيّة؟

وهل زوّق المرئي المنمّق

بشاعة اللامرئيّ الممزّق؟

وجهك يقول:

إنّ في أعماق هذا العالم

المزيد من الخيبات والثورات!..!

لوحة وقصيدة

صديقي النحيل

الرسام الذي يختفي أياماً

وينبثق فجأة كلطخة حمراء

عند منعطف الطريق..

حيّاني هذا المساء

وعينه على مطعمٍ في الرصيف المقابل

- ما رأيك بهذه اللوحة؟

هل تشتريها؟

ابتسمتُ رغم أن رائحة الشواء

كانت تعتصر أحشائي

- لا مال لدي.. معي قصيدة..

هل تقايضني بها؟

قهقه وودّعني بكلماته البذيئة

- لا بأس، ازدرّد أنت قصيدتك..

وأضاج أنا لوحتي..
فهذه ليست الليلة الأولى
التي ننام فيها بلا وجبة عشاء
أو ضمّة حواء..

الملثمون

ها هم قد وصلوا أخيراً

كان الجميع بانتظارهم

الأعداء والأصدقاء

الأقارب والغرباء

فقد صاروا، فعلاً، نوعاً من الحل

وأخيراً وصل البرابرة⁽¹⁾

لم يكن لسواهم أن يبتكر الحل

كنا ككائناتٍ غير نقدية

عالقين في التبرير والاجترار

لم نتعلم من الأنهار معنى التجدد والانسحاب

حاضرنا انبجج على ماضيه

فانكشفت سوءةُ تاريخٍ مجعّد

(1) استرسال مع قصيدة كافافي الشهيرة (بانتظار البرابرة). ولا بدّ أن أسجّل تحفظي على لفظة (البرابرة)، فهي تنتمي إلى النسق الفكري اليوناني القديم، الذي كان يسمّى غير اليوناني (الأجنبي) بالبربري. أستخدمها هنا بمعنى الضد الحضاري وليس الضد العنصري، وهي الدلالة التي تكاد تتخذها اليوم، متخلّصة من دلالتها العنصرية.

حبسنا جمالنا في صورة⁽¹⁾

كنا خجلين من الحياة

فتولّى المثلثمون عنّا كشف العورة

وأنقذوا وجوهنا من حمرة الخجل

طيّبوا نفوسنا

حين أكدوا أنّ الشر ليس فينا

وأنّ القبح هناك

وأنّ الأشرار هم الآخرون

كم كان يوماً بهيجاً!

حين خرج المثلثمون من هشيم تاريخنا

أشعلوا النيران واستباحوا المدينة..

لقد كان البرابرة شجعاناً وصادقين!

كشفوا كل ما أخفيناه وأولناه في التاريخ

فجرحنا قديم

وغائرٌ في أعماق أعماقنا

بقينا نلغو بجمالنا الخالد

(1) إشارة إلى رواية أوسكار وايلد (صورة دوريان جراي).

وننتشي ببريق الطواويس
ونتغنى بنقاء سريرتنا وعصرنا الخارق
استرسل الزمان بعاداته
وبقينا نطوف حول جمالنا في الصورة..
دوّت صرخة رعب هائلة
ففي نهاية الأمر
تثار الحياة لنفسها بطعنة في الصميم
كي تحرّر المادة من وهم الأسطورة
وتنقذ الروح من أسر الصورة..

الغابة والشجرة

تعثرتُ بالحجر

فاحتفيت بالمطر

استدرجتني البرية

وزجّت بي في متاهة الغابة السوداء

بين الفكر والشعر

لمحتُ المعتكف⁽¹⁾ يحاور أسلاف سقراط

ولم ينقذني، من تيهي، كل الشجر

كنتُ أهفو إلى سماء الحاضر

ولم أحفل، أبداً، بإشراقات عصرٍ غابر..

* * *

تهتُ بين الغابة والشجرة

في غبش حياتي

حتى أوصلتني إلى عتبة ذاتي

(1) المقصود مارتن هيدجر.

رائحة الثمرة..

بين مساء المدينة وفجر الخيال

أكدح في بستان الصور

أعتصرُ النثرَ فيتصبّب شعرا

أقطف عناقيد الاستعارة

وأرتشف نبيذ المجاز..

لا أقيم صرّحاً لوعدٍ أو أكرّس يقيناً

ولا أتوهم أشباحاً طوطميةً تُضِلّني

أبقي نوافذي مفتوحةً

ولا أسدل ستائر التابو

فيألفني الليل والفجر يدّني

إلى (فم الأنهار)⁽¹⁾

سقتني الأيامُ بكفّ الوصل رحيق المسرّات

وبالأخرى حطّمت الكأس مرّات..

الحياة رغبةٌ لا تنطفئ

(1) في ملحمة جلجامش، هو مسكن (أوتو- نبشتم)- بابلياً- (زيوسدرا) - سومرياً-، الذي نجا من الطوفان ومنحته الآلهة نعمة العيش خالداً هناك.

ما إنْ تخبو في فردٍ
حتى تُلتهب في آخرٍ..
من فرطِ عنفوانها
يترأى أفعوانها كإثمٍ طويلٍ
يتنازعها الضدان
بتفاحتها الفاتنة ينهمك الإنسان
فيما ينخر أعماقه الدود..

العودة إلى البيت 1

نافذةٌ بعيدةٌ..

تلمع في جبين بيتِ شاحب

يتشاءب في أطراف المساء

تأوي إليه الأقدام بعد الإعياء

يتخفّف الجسد من ملابس الأعباء

ويفكّ خيوط التعب اليومي

أبخرة الحساء الساخن

تنتّ الدفء وتوجّج الشهوات..

رغم الأوقات الرثّة

فثمة لحظاتٍ طليقةٍ لم يدركها الكدر بعد

تنطلق كركراتٍ خافتةٍ

وتمشّط بأسنان مشطٍ عابثٍ

الشعر الكثّ لرغبات النهار المجعّدة

أيها الجسد المبدّد

أدرك لحظات الجمال الهاربة
قبل ارتخاء الحواس واختفاء الأثر..
الجمال حقيقةً سافرةً
كأنثى عاريةٍ تخرج من خيال الماء
تتدفق كنافورةٍ
قطراتها المتناثرة غمغات
تختلط بوشوشات آخر الليل
كأصوات أشجارٍ منهمةٍ
برقصةٍ سريةٍ مع الريح..
تظلّ للبيت براءة المعنى الأول
وطمأنينة المأوى الدفيء
تظلّ للبيت رائحة الحزن الحميم
وطعم الطفولة البعيدة..

العودة إلى البيت 2

شحوب المعالم عند الغروب

يجعد الدروب

الريح لم تعرف الحشمة يوماً

تُعرّي الطبيعة وتنتهك التضاريس

تتمادى بلعبة المعميات

وتحرّض غريزة الهروب

تتعب الخطى

ولا يلوح أيّ ملاذٍ في المدى

أيّ زمنٍ هذا؟

تطيش ضربات فرشاته وعمرى يتبعثر

أيّ زمنٍ هذا ينثرنى كبقع عبثية

في متاهةٍ بلا هيئةٍ أو مسار؟!!

أيّ وطنٍ هذا؟

تُضِلّني طرقه ولا أصل إلى أيّما بيتٍ

يبَدِّد رسمي ويَطْمَس رسمي

أَيَّ وَطَنٍ هَذَا يَضِيقُ بِي وَيَتَّسِعُ لِكُلِّ عَاصِفَةٍ؟!

الفرجة

الغريزة الفضائية

تفرك عيونها عند نوافذ الفرجة

فثمة شجارٌ كونيٌّ في الجوار

والتراشق اللساني، بين ساسة أمم متجاورة،

فاحشٌ كتلاسن نسوة الحي

بعد غواية زوجٍ أو هروب عذراء..

التضرج بالدم

من نصيب أولئك المندفعين

الذين تأخذهم العزة بالوهم سريعاً

إلى الميدان

فهم في كل أوان

حطب الحرائق الكونية..

عندما ينتهي حقاو القبور من دفن الموتى

يظهر التجار، أخيراً، فيحصون الخسائر

ويحصدون الأسلاب والأرباح..
وتغادر العيون الجاحظة نوافذ الفرجة
بعد ارتواء الغريزة الفضائحية
بالمتعة الحمراء!!

أيائل

وَجُنَّتَاكِ جُنَّتَانِ

وَتَغْرِكِ فِرَاتٍ..

مِنْذِ فَجْرِ بَعِيدٍ

أَذْهَلْنِي فِي عَيْنَيْكِ

اِخْتِلَاطِ أَضْوَاءِ الطُّفُولَةِ الْبَعِيدَةِ

بِأَفْرَاحِ الْعِيدِ..

كَلَّمَا تَمَايَلْتَ السَّنَابِلَ وَالْأَشْجَارَ

فِي حَقُولِكِ الشَّاسِعَةِ

تَرَنُّحْتَ نَفْسِي فِي مِبَاهِجِ الْمَاءِ

مَنْتَشِيَةً بِرِذَاذِ الْأَنْهَارِ

وَوَخَزْتَ أَطْرَافِي الْأَسْمَاكِ الصَّغِيرَةِ

وَتَوَاتَبْتَ أَيَائِلِي طَلِيقَةً بَيْنَ الْأَغْصَانِ

عَلَى امْتِدَادِ زَغَبِكِ الذَّهَبِيِّ

وَتَسَلَّلْتَ عَبْرَ شَعْرِكِ الطَّوِيلِ الْكَثِيفِ

غَائِرَةً فِي لَيْلِ الْبِرَارِيِّ الْغَامِضَةِ..

تلويحة

السيدة المضيئة لوّحت بالقبّعة

على شفّتها قبّاتي

وفي يدها حقبة حياتي

السيدة لوّحت بالقبّعة

فغطّت سماء الميناء

أسرابُ الحمام الأبيض

أرّخى المودّعون أيديهم

واعترضت أكفّهم مناديل الوداع

توارت السفينة في الأفق البعيد..

غادر المودّعون

وتفرّقت أسراب الحمام

قلبي لوّحه ظلّ على الرصيف

يحتضن الصور الأخيرة لسيدةٍ تلوّح بالقبّعة..

الساعة

الساعة المثقوبة ينسكب وقتها
وأنا أقفز من وهمٍ إلى وهمٍ
كمن يعبر بركةً آسنةً على أحجارٍ قلقة
زلّةٌ واحدةٌ تكفي لأسقط
ويتكدر كآسي ويتهشم عمري
كنتُ قد تناولتُ الكثير من أقراص الوهم
وكانوا نائمين على صخرة اليقين
أجأتُ موتي ورفعتُ صوتي
لم أنم.. ولم يصحوا..

* * *

ستمضي وحيداً
في مساءٍ أخير
تغادر صخب النهارات
ولوحدك ستغوص في رمال ليلٍ أبدي

حيث لن يجديك التشبُّث بشيءٍ
ولا أحد سينصت لصوت اندثارك
خطوتك الأخيرة ستبتلعك، وحيداً،
وتغرق في نومٍ عميقٍ..

الثمرة

تنزف الشجرة

لتنضج الثمرة

أطلقى حمائمك من الأقفاص

وانثري خصلاتك في الريح

فكل طقوس الخصب

كانت تحت ظلال الأشجار

على وقع رقص السنابل في الحقول

لا تفرعي من الغوايات

فالنهي فحيح الأسلاف..

الأفعى أيقونة أبقرات

واللدغة جرعة شفاء

بينما كان آدم يقطع البراري

ويطارد الوحوش

كانت حواء تمسك بزمام الوقت

وترعى البذور..
لما انهمرت الأسماء
ارتبكت المواسم وفرقتهما الأعاصير
وانخذلا منقسمين
حين سقطت بينهما تفاحة السماء..

بريق

من أين لعينيكِ كل هذا البريق؟
أدمعاً أرى أم أحزان الماء؟
كيف لعينين أن تتسعا كمحيط
وأن تسعفا مفتوناً غريقاً..؟
تفاديتُ الأمواج كثيراً وتجنبتُ الأخطار
لكنني أيقنتُ أخيراً
أنّ العبث يحبك الأقدار
لمّا حجب الوجود عينيكِ عني طويلاً
ودسّهما بمكرٍ في لحظتي الأخيرة
فالإبحار فيهما يقتضي أعماراً وأعماراً..
مُغرِقٌ بحر الفتنة ومهلكٌ تيار الجمال
يا لغزارة عينيكِ..
وآه من شحّ الزمان!

عشب أحمر

هل قبضت يوماً على عصفورٍ،
بين كفيك، يرتعش خوفاً من الهصر؟
كأنه قلبي المخطوف
يرتعد للإفلات من سلطة السحر
أتحسس لمسات أناملك على سطور قصيدتك
وأنصت لهسيسك وزفيرك
خصلات شَعْرِكَ المنسدلة على البياض
تؤرجحني بين الليل والنهار
يصلني بعضك فيصليني..
عند الفجر بعد قيام الليل
وانكشاف آيات القصيدة
وانقاد ذاتي بإشراقات القصيدة
أتوضأ بالعسل والخمر
وأذكّر ركعتي الحلاج

(ركعتان في العشق)

لا يصحّ وضوءهما إلا بالدم)

تحت الضياء الأول للشمس

تنسكب الروح

أقْطُر فوق العشب قطرةً قطرةً..

قالوا: ويحنا لقد احْمَرَ العشب

أنبوءة أم نذير؟!!

لقد سُفِكَ على أرضنا

دمُ العشق الأسطوري

الويل لنا..

ستسقط السماء!

ستسقط السماء!

ستسقط السماء!

تقريظ الحلم..

الأمس كان شاحباً
والغد سيكون موحشاً
لا ظلال لروحي ولا صوت لأحلامي
دروبي قاتمةٌ وضوئي شحيح
من ينير العتمة
ويسكب النور على غابات الليل؟
ومن يطرد الأشباح ويوقظ الفراشات؟
عيناها بعيدتان..

من يللم الأوقات السعيدة التي تبعثرها الريح؟
ومن يلتقط الأسماك الذهبية
التي تهرب من خيال الماء؟
من يدسّ الأنامل النهمة في الخلايا
ويطلق أسراب الأفراح؟

يداها نائيتان..

الشمس تشتت غيوم الشتاء
تمسح الضباب عن مرآة السماء
وبمشطها الذهبي تصبغ شعرها بالحِنَّاء
الحقول تضجّ بأمواج السنابل وهدير الغلال
والبساتين تنوء بثمارها
من يمزج عسل الرضاب بنشوة الكروم؟
ومن يسقيني نبيذ الآلهة؟
شفتاها قصيتان..

كنتُ خالي الوفاض إلا من عكازٍ متداعٍ
معدود الخطى محدود الزمان
وجسدي يتقوّض بين المطلق والإمكان..
أشعل الأشواق في أعشاب الكلمات؟
مخطوف اللبّ مقطوف الذات
من يخمد الجنون وحرائق الصبوات

في قميصي الترابي؟

من يسكب شفق الغروب في شبق المساء؟

ويقرص الحلم حتى احمرار الليل

لستُ بحاجةٍ للذهاب بعيداً للعثور على الأبدية

حسبي أن أشيح بوجهي عن أوهام العالم

وأغمض عينيَّ فأراها..

حكاية كل شتاء

هي رائحة الشتاء

وزخّة المطر الأولى

تفوح ذكرياتٍ ورغبات

تنخطف الأرواح ببرق الإشراق

وترتعد الأجساد بالأشواق..

يا للروح كم تدّخر من قصص الخريف؟

تتدفأ الحكايات قرب مواقد الشتاء

ويلوذ الأطفال بأحضان الجدّات

ومضة الحُبكة تبدّد وحشة الظلام..

كم يربكني اختلاط الفصول

يحدث كثيراً أن أتغافل عن الربيع وأتحاسى الصيف

فيدهمني الخريف ويعتريني الشتاء

أرتدي معطفي القديم

أقلب جيوبه فأعثر على حكايةٍ مجعّدةٍ

من الشتاء الفائت

عن حسناء كانت تشوي سمكةً نهريةً

لحبيبها العائد من البحر

مصاباً بدُوار الحرب..!

أرميها في النهر وأعبر الجسر

متوّغلاً في ضباب الشيب

وأخطّط لكتابة الحكاية من جديد

عن حبيبةٍ لم تكذُّ تُنهي غسل يديها

من بقايا السمك ذات صيف

حتى خرقت أحشاءها شظيةً..!

سفر

ما أقسى البرد في الطرقات
ما أقسى السفر دون معطفٍ أو غطاء رأس
في صقيع الشتاء
الرياح تعصف في أشجار الروح
ونفسي كغابة مهجورة
تعبث بها أشباح هاربة من أزمان الأسطورة

مررتُ بحديقة تفوح بعطر الأبدية
لمحتُ وردةً مضيئةً فوق عشب المساء
هممتُ أن أشمّها وأن أئتمّها
وخز الشوك قلبي فسالت قطرة دم
لوّثتُ قميصي الترابي
هويتُ ووجهي صوب السماء
ما أبعد تلك النجوم

هل سرّ الجميل في الغموض

أو في ومضه البعيد؟

أجسدي لغز الطبيعة

أم محنة الروح؟

* * *

لمحتُ في عينيها عند الفجر

دمعتين بلون النجوم وطعم الندى

تُشرف من علِّ كإلهٍ قصيِّ

وتحدّق بجلال ملكيِّ

في ظلّي المتلاشي تحت شمس الصباح..

توهم

يغفو الشذا في حديقة الليل
ويرقد الندى فوق بتلات الورد
عند الصباح تفرع أجراس الودّ
يوقظني خريير صوتها
وتمسح ليل وجهي بحرير خديها
تفرش مائدة الفطور
تنادي هلمّ
... أهمسُ رفقاَ بعمرى الفانى
فقلبي واحدٌ واللذات شتى!
وشطيرة يديك تفوح بالطيبات...

تطوي مائدة الفطور، وتفتح باب بستانٍ سحري، تهتزّ أشجار
التفاح، يغمرنى عطر الزهور ويبلّ وجهي رذاذ الرحيق. يدغدغني
شعرها المنتور تحت ضوء الشمس، ضوع حنّاءٍ متوهّجٍ يخدرني.
أقضم تفاحةً حمراء، فأسقط مفتتاً في فردوس حضانها.. أمضغ
برعمين ورديين، وأرتشف نبيذاً معتقاً من حانةٍ بابلية. أتسلّل ثملاً

في غياهب أثلٍ كثيف، أغمض عينيَّ فأصحو..! وحدقات الروح
تفتّش في حدائقها الذهبية عمّا تبقى منّي..

أنسكبُ في عينيها

فيأخذني الموج بعيداً

أطفو متورّداً الشفتين

قبيل انخطافي إلى الأعماق

عاري القلب صادحاً بالأشواق

لم ينتشلني من غرقي

سوى الذي أنس أرقى

وبلّني برذاذ ريقه

فكان بيني وبين اختناقني أحلى رمقٍ

الجمال رخام العشاق

يلتمع بحكايهم و يتلألاً بالأشواق

خيال الماء

كم عذبتني خيالات الماء
أنا الذي شرقتُ دوماً بقطرة ماء..

أتأمل في عينيها

ينابيع الفجر وشلالات الليل

فيغمرني هدير البحر

في أديرة منسيّة أفكك رموزَ رهبانٍ، دلّسوا ورسّموا شارة الخطيئة
على أبواب المدينة، وطمسوا أسرار وأفراح البشر الأولين.. خوّفوا
الفيزيقي من الشعريّ، يوماً، فانقسم الوجود.. لقد زوّرت قوانينك يا
نيوتن! فالشوق قد التهم تفاحتك، وليست تحفل بالمسافة، وليس من
داخل أو خارج، وليس من سقوط. الكون مسكونٌ بلوثة العناق،
ينهصر ويتكثّف حتّى يتفجّر النور.

ما هذا الزمان بزمانك

وما هذه الأرض بأرضها..

رهافة

عظيمٌ ما تبصره عيناك
شحيحٌ ما تلمسه يداك
وقتكَ حطبٌ وزمانها بستان
في قبوك تمضغ الظلام
وفي أيكها تلمع عناقيد الكروم
تشاغل بشدوها السماء
وتدسّ أصابعها وراء الغيوم
لتقطف باقةً من نجوم..
فاتنة العصور تنكش الأسرار
انفراج شفتيها نداءً عسليّ
تهفو إليه القبلات
أنفاسها تعبق بالسرور
وشعرها الطويل يسيل كأنغام الكمان..
تقرع أجراس الأعياد فتتراقص الأفراح

القلب يرتشف الحبور
والروح تحتفل بالأعراس
لكنني أحجم عن لمس هذا الجمال
فقد أتكسر كموجةٍ
وأتفتت كجناح فراشةٍ..

حديقة أبيقور

في حديقة أبيقور

طوّقتُ حضورها فغاب غيابي

تورّدتُ شفتاي بكرز بستانها

تبادلنا نخب الأسرار وقضنا مفاتن التفاح

لم يحدث أبداً

أن كانت السماء تسكب زرقتها بهذه الغزارة

وتدغدغنا حتى يتفجّر الضحك

فتهتزّ من حولنا الأشجار..

ولم يحدث يوماً

أن كان العشب يتمادى بالمزاح

حتى يصفّر نداءه مع شعرها الطويل

فتنتشلنا جدائل الفجر من وهدة المتاهات

لما طوّقتُ حضورها

غاب غيابي وحضرت كل الأشياء

الوجود بوحدته راح يمرح فينا
وامتزجتْ أشواقنا بعناصره
في فناء الذات
عانقنا كلَّ الذرّات
حتى الفناء في العشق وأواصره
لم نعدْ نلمح الجميل
من عمق التصدّعات وكثرة الخدوش
فاستبدلي أيتها الأوطان
مراياك القديمة..
فأنا وفوضاي والعالم
نصبو لنظام الجمال..

التوت الأحمر

في شرفة المساء

أسكب شوقاً معتقاً في مزهرية قديمة

فيتسلق اللبلاب وتنزل النجوم

وحكاية تفتح شباكها المغلق

لتتسلل امرأة ضوئية

كنتُ أظنها قد سافرت بعيداً

مع الآلهة التي غادرتُ على عجلٍ ذات خريف..

تدخل إلى غرفتي الفوضوية

وترمي بأغراضها الشفيفة على الأريكة

أتوضأً بريق شفيتها

وأتهجد ببريق عينيها

تقاسمني خمرة الوجد وتشاركني قيام الليل..

يدوب المساء في الليل الكثيف

وتأخذني رعشة الافتتان ورعدة الانخفاف

لَمَّا أَثْمَلَنِي نَبِيذُ مَفَاتِنِهَا

فَنَبَيْتُ فِي غَبْشِ الْفَجْرِ..

عند الصباح

وجدتُ لونَ حِنَاءٍ فوقِ الوَسَادَةِ

وفي الشَّرْفَةِ كَانَتْ المِزْهَرِيَّةُ قَاحِلَةً

ورِيحُ نِهَائَةِ الشِّتَاءِ تَهزُّ شَجَرَةَ التُّوتِ فِي الجَوَارِ

أدهشني احمرار توتها الأبيض⁽¹⁾

والوشاح المشبّع بالذكرى يتمتم في يدي..

(1) أسطورة بابلية، عن عاشقين انتحرا، بعد تعرّضهما لمصادفة ماكرة، في طريقهما إلى موعد غرام، عند شجرة توت ارتوت بدمهما، فتغيّر لون توتها الأبيض إلى التوت الأحمر القاني.

أشياء صغيرة

لن توقف الغيمة

ولن تحبس شذا الورد

لا ولن تسمل الضوء أو تلمس النجمة

أمّا النهر بمراياه السائلة

سيذيب أوقاتك ويحمل، بعيداً، صورك الذابلة

لست قصباً بل نايّاً

يدلق أشواق القلب في جداول الغناء..

* * *

نعم، كم أسكرني بغير خمرٍ ذلك الوجود الفتان؟

وتلك الحمرة الخفيفة في خدّ أول فتاة

وهي تشدّ، إلى الأسفل، تنوّرتها القصيرة

لتغطّي وتكشف ورودها الغضة

وتلك القرصة الماكرة فتحت باب القفص

وأطلقت أسراب الأفراح

ونثرت حبّات القلب تحت شجرة الرمان..

كم كانت كبيرة

تلك الأشياء الصغيرة؟

لكننا كبرنا.. آه.. وصغرنا بكلماتنا الكبيرة..

بين صفرة الذبول وتجعد الفصول

رحتُ أجمع حطباً

من غابات الخريف لأمسيات الشتاء..

نهر الجسد

تذبل وردة الليل
وتستيقظ فتاة الفجر
تغمس إصبعها في النهر
فيشعل عريها مرايا الماء
تمشّط شعرها فتراقص أحلامها الأمواج
زالال النهر جسد أنثى ينبع من الأزل
تترقق العصافير وتحتشد الفراشات
في الضفة الأخرى كنتُ وما كنتُ
سمعتُ العري الأملس
يختلسه شبقُ الماء..
لوح إصبع الفجر الوردي
فترقبتُ الموج الماجن
وعطر الليمون الفاحش
وغصتُ بين سيقان الحرير..

عودنا الجمال بتوهجّه القصير
أن يخرّ سريعاً كالشهاب
ويغرق كنجمة دهشةٍ في هشاشة الأفق
وأن يمزج في أعماق الروح
شهوة التذكّر بلذّة الزوال..

ومضات

(1)

سأمضي

ستمضين

سنمضي

وستعوي الريح

خلف غروب الأشكال وتلاشي الظلال..

(2)

أتيه في ليلٍ مظلم

تموء القطط وينبح الكلب

تداهم قلبي الأشواق

فترشدني ماسةٌ حمراء

إلى تفاحةٍ تلمع بين يديك..

(3)

ريح نهاية الشتاء تعصف
في شجرة التوت الأحمر
وفوق حشائش الليل الموحش
تتساقط حبات حُبِّ نازفٍ..

(4)

في بستان الصيف أشمّ فجر الندى
أسمع هممة استيقاظ الورود
وفي عينيكِ
أرى لألاء العشق
عند اشتباك شفاها نذوق نكهة الأبد
وفي نهر جسدك
أصطاد أسماك العري الذهبية..

(5)

الأطفال جميلون وصُرْحاء كالماء

لكننا كبرنا واختلفنا
وأخفينا قبحنا بالأقنعة..

(6)

بعد كلِّ عظةٍ

تسيل الدموع..

لكنَّ الشرور لا تتوقف عن الجريان!

(7)

في قبوٍ مظلمٍ في أقصى الروح

تفحّ أفعى مسمومة

دسّها في كياني منذ زمنٍ بعيد

كاهنٌ سلالةٍ منقرضة..

(8)

نظر صوب السماء وهتف

- أمطري..

ضرب الأرض بقدمه وهمس

- احبلي..

(9)

أخذتنا بعيداً شهوة الماء

لم نلتفت لحكمة اليابسة

أصيب البحر بدوار العشق..

(10)

الريح..

أشواق هائمة

واحتضار قلبٍ جريح..

نصوص

سرب الجمال

كفأك ثرثرةً فقد بلل جفنيها نثيث النعاس، فاكتم أنفاسك
وأنزلها كالهمس على الفراش ودثرها بصوف الصمت. شئت
الكوابيس وانثر على وسادتها عطر الأحلام. عند الصباح أبسط
كفّيك كرقائق الورد، وأحملها برفقٍ إلى فطور الصباح.

كم كنتُ ساهياً عن همس النجوم ونكهة القدّاح وميسان
الأزهار؟ حتى لاح حضورها الفوّاح كموسم قطافٍ يملأ سلال
التفّاح.. أكان في عمرها مواسم وفصول؟ أم هو موسم تفتحٍ دائم،
وفصل إشراقٍ مقيم؟

كل صباح... تتواثب الغزلان وتحلق النوارس وترمش
الأفراح في عينيها... كلّ صباح...

لم تتمهل شفتاي، بل طارتا كفراشتي لهفة صوب النور.
أصابعي تورّدت إذ لامست أمواج الحرير وبريق اليواقيت وتدقّ
الربيع في حدائقها. كيف تمتزج كلّ هذه العناصر فيها وتنتشي
بنسغ الدهشة وطراوة الفجر الأول؟ أنا الذي عشقت عالم الألوان
وخبرت أسرارها.. كيف تباغتني غزارة ألوان حواء؟ شعرها
هسيسٌ منتورٌ يسحرني، ويثمني عودها البيض. تعزفني جوقة
نظراتها، وثغرها الهائج يراقصني... جسدها العسلي يرشفني

وَيُجَنِّحُنِي ظِلِّهَا الذَّهَبِيَّ فَنَتَطَايِرُ كَالْحَمَامِ.. وَنَحْلُقُ فِي كُلِّ الْجِهَاتِ
أَسْرَابَ مَسْرَاتٍ.

البهجة تتقاذف كالعصفور ويترنَّح المرح المغمور، جَذَلٌ لَا
ندركه إِلَّا فِي الْفَجْرِ الْأَوَّلِ، عِنْدَ ذُوبَانِ اللَّيْلِ وَاسْتِيقَاطِ النَّهَارِ.
أَهْجَرْتُنَا الْأَلْهَةَ أَمْ تَحَرَّرْنَا مِنَ النَّفْسِ الْقَدِيمِ؟.. فَاعْتَقْنَا الْحَرِيَّةَ
وَانْفَلَتْنَا مِنْ أَسْرِ الْأَسْطُورَةِ.. اسْتَعَدْنَا حَقَّ ابْتِكَارِ الْأَسْمَاءِ وَابْتِدَاعِ
الْأَشْيَاءِ.. أَلْفِينَا أَنْفُسَنَا أَحْرَاراً كِي نَسْمِيَ آلِهَتَنَا فَسَمَّيْتُمُوهَا سَيِّدَةَ
الْجِهَاتِ. لَمْ يَكُنْ حَلِماً وَلَا ذِكْرِي.. بَلْ كَانَتْ رِقَّةً أُخِيرَةً لِفِرَاشَةِ
قَلْبِي.. تَفَنَّنْتُ حِينَ حَاوَلْتُ مَلَا حَقَّةَ سَرَبِ الْجَمَالِ.

القصب والطين

...كلّما أمعن في تخيل من وما يعشق، ألقى الجنون عقلاً جميلاً. وأدرك
مسرات الجمال بأوجاع الهدم والبناء وتجرو الخيال...

نفخ في الناي أشواق الروح فتأوه أنين مجروح. أطبق شفثيه
على الناي وأرسل قبلة هائمة في غابة القصب.. بحثاً عن الثغر
المُشتهى.. استمر يعزف روحه حتى أيقظت أنغامه الكائنات
الأسطورية في غابة القصب. شحّت أنفاسه وبخّ صوته فوضع
الناي جانباً. أتاه صوت (نيدابا)⁽¹⁾ حرفاً هامساً، حرفاً خافتاً، ثمّ
جهر الصوت بالحروف الأخر من أعماق القصب.. أنصت
مندهباً وقلّب متلذذاً بين لسانه ولهاته نبرات الحروف. استرجع
عادة الحلم الطفولية وقصب شطبة من قصب صفراء، وسوى من
الطين الحرّ لوحاً. ثمّ راح يدمج الحروف البكر ويشكلها ككلمات
نابضة، وينقشها بالشطبة فوق الطين الطري. جمع الكلمات في

(1) نيدابا: إلهة القصب والكتابة عند السومريين..

((لقد رأى "جوديا" في ذلك الحلم رجلاً ذا قوام هائل يضع على رأسه تاجاً إلهياً..
وظهرت امرأة تمسك بيدها قلماً ذهبياً... أما المرأة التي تحمل قلماً ذهبياً وتمعن النظر في
لوح رسمت عليه قصة السماء فإنها إلهة الكتابة وإلهة الـ "إيدوبا" (أي المدرسة)
الحامية التي توجهك لبناء البيت وفقاً للـ "نجوم المقدسة"..))

صموئيل نوح كرايمر، السومريون

جملٍ ونضد السطور فصارت حكايةً أسطورية. تلملت الحكايةُ فوق لوح الطين، وخرجت صبيّةً عذبة كأنغام روحه التي سكبها في الناي.

الشمس الذائبة تضيء شعرها الطويل، فيتلاً لأ الحنّاء بوهجٍ شبقي كحمرة الشفق. الشعاع الذهبيّ يغمر جسدها القمحيّ فينبض البرونز اللامع. يمد يده اليمنى نحو خدها الأيسر فيخفق في صدره طيرٌ جائحٌ لاهثاً، ينقر عناقيد الشهوة.. يمد يده اليسرى إلى خصرها ويضغط هذه المرة أكثر، لكنّه لا يلمس أديم حقولٍ ولا زغب سنابل.. يخفض يده اليمنى قليلاً، ويمرّرها خلف جيدها لا تجد ما تقبض عليه. إنّه يرى كل جسدها انثناءاته وتكوراته وخبائاه، والبريق البرونزي كمغيبٍ لا يغيب. لكنّ يديه لا تلمسان غير ألوانٍ شفيفةٍ وظلالٍ أشكالٍ هاربة. يتشمّم عطرها الأنثوي، مزيجاً من ضوع حنّاءٍ متهتّكٍ وشذا ليمونٍ ماجن. يشعر بجسمه ينغمس في هيئتها دونما صدٍّ أو مقاومةٍ، وكأنّه يتوغّل في أثرٍ عطرٍ مضيء. لا يشعر بضغطٍ جسديٍّ ما ويلج أكثر فأكثر.. تتنقل يداه في الجهات الست فلا تقبض على شيءٍ. يهدأ غليان دمه وينكمش طير صدره الهائج. يتراجع إلى الخلف، لا يبصر شيئاً وتتبدّد هيئتها وتتلاشى. يدور حول نفسه ويمضغ روحه الموحشة وحيداً في المكان..

لم يكن في المكان سوى الناي ولوح الطين اليابس. الحروف والجمال والسطور ذاتها قد تجمدت كنصٍّ مرصوص. قرأه فوجد

الحكاية التي كتبها معكوسةً. تبدأ من حيث أنها وتنتهي من حيث بدأها.. استغرق في قراءة الحكاية المعكوسة، هي حروفه وجمله وسطوره، هي حكايته التي كتبها ذاتها، الصور والصفات كما أثبتها الأسماء والأفعال هي هي.. لكنّه اندهش من أنّ كلّ أفعال المضارع التي استعملها في الحكاية قد انقلبت إلى صيغة أفعال الماضي.. غمرته حيرةٌ تائهٍ في بلدٍ غريب والتبس عليه الأمر كلّه. قذف باللوح في أعماق القصب..! والتقط الناي من جديد.. نفخ فيه أشواق روحه ففاضت في الفضاء تأوهات أنينٍ حزين.. وظلّت القبلة هائمةً في غابة القصب تفتّش عن الثغر المُشتهى.. وظلّت أنغامه تحاول إيقاظ الكائنات الأسطورية التي ينشدها قلبه ولا تدرکها يداه..

المدينة الحديثة

العقل يصلي في مكتبة المدينة

ينكبُّ على الأوراق

بخشوعٍ دنيويٍّ..

كان الوهم كحشرةٍ تمشي على (شريط موببوس)⁽¹⁾ بلا نهاية،
ظنَّ أنها لابثةٌ في الخارج ولما التفت رآها تسخر منه في الداخل.
توهم أنّ المكتبة هي ملجأه الأخير، وملاذه الآمن من هوج الجهلة
وهوس القتلة.. استتر بالموسوعات واندسّ بين المجلدات ولكن.. لا
جدل هيجل نفعه ولا مطلقه أنقذه من فخاخ الظلال وشراك
المتاهات.. داهم الجند الغلاظ القاعة وراحوا يقلبون الرفوف
وينتفون ورق الكتب العزلاوات.

سحبوا ذراعيه إلى الخلف وقيدوا معصميه بقيد بلاستيكي
وغطّوا رأسه بالكيس الأسود وسحبوه كالخروف. كانت التهمة قبله
كان قد نسيها ذات يوم على شفةٍ جائعة..

(1) شريط موببوس مصنوع من ورقة مستطيلة تدور نهايتها 180 درجة وتلصق بالنهاية الأخرى. فإذا قامت حشرة بالزحف على طول هذا الشريط، فإنها ستمر على كلا السطحين (وقد صاروا سطحاً واحداً) وستعود إلى نقطة البداية إلى ما لانهاية، وكأنه طريق واحد لا ينتهي.

أنت في المدينة

أنت متورطٌ في الشأن العام إذاً..

في المدينة حتى القبله تغدو سياسيه!

(الصخب والعنف)⁽¹⁾ على أشدهما في الخارج. بين حقبه وأخرى تجتاح المدينة الجائحه ذاتها. بعد انقشاع الغبار الأحمر وغسل الشوارع من الأتربة والدماء ورفع الأنقاض والجثث، تنحني المدينة على نهرها لتغتسل من آثار الهياج والاجتياح.. وترى في مرايا الماء ما خلفته الأحداث على وجهها من خدوش وتجاعيد، وتمشط شعرها المجعد، تختلط أغانيها الحزينة بهممة الأمواج.

كانت الحداثة قد سكنت الطوابق العليا للمدينة

تغنت بالإنسان- المفهوم

وأغفلت الضواحي المهمشة وأزمة الفقر

كان الفرع هشاً في قلب الحداثة

والصروح كانت من هياكل الجروح..

كانت الحشود تغادر الريف الفسيح صوب المدينة الجديدة، الأفواج من كل الاتجاهات تسرع نحو المركز. كلما اقتربوا أكثر، تخلصوا من بعض وحولهم ولمعوا أحذيتهم أكثر. كانت الجموع

(1) عنوان رواية لوليم فولكنر.

تتسابق للوصول إلى المركز. تساقط الكثير منهم في الطريق. تزاحموا وتصادموا لم يعد المركز يسعهم كلهم واشتد التدافع، فارتفعوا عن الأرض وأخذوا يفورون إلى الأعلى كالنوافير حتى كادوا أن يلامسوا السماء. تجمّدت تلك النوافير وصارت لها نوافذ زجاجية لامعة. قليلون هم الذين نجحوا في الولوج إلى قلب تلك النوافير. صعدوا عالياً وسكنوا خلف تلك النوافذ الزجاجية، وشخصوا بأبصارهم بعيداً بعيداً.. نحو الريف المهجور. في الأسفل رفع الطفل الممسك بيد أبيه نظره إلى الأعلى وهتف متسائلاً: هل هذه هي التي يسمونها ناظحات السحاب...؟! ابتسم الأب وهو يجيب: نعم يا بني.. ولم يبقَ لنا فيها أيّ مكان. استدارا وابتعدا باتجاه الضواحي حيث يسكنان..

صمتت الحداثة أخيراً

فانبرت ما بعد الحداثة للحديث

عن الدروب الخلفية والأحياء المنسية

لكنّها لم تَبْرأ من (ما) بعديتها

وظلت تسكنها سورة النفي

ولم تنفِ نفيها

فظلت أسيرة المدينة متعددة الطبقات؟!!

أطلقوا سراح العقل بعد شقاءٍ عظيم، وبعد أن تعهّد لهم أنْ

يحسن التدبير والتبرير، وأن يخفف من غلواء الشريرين من سگان الضواحي. خصصوا له مكاناً فخماً هناك خلف إحدى النوافذ الزجاجية اللامعة. وفي طريقه كان عليه المرور بالضواحي.. ها هو! هتف أحد شبان الضواحي.. أحاط به الناس بأسئلتهم النارية الغاضبة. كان وسطهم وحدث أن أية أجابة منه قد لا ترضيهم ستعرضه للبطش.. ومن هناك من مركز المدينة العالي لمح (اليد الخفية) تشير إليه وتحتّه على القيام بواجبه. شعر بحيرته وعجزه الشديدين أمام الأخطار التي تتهدّده من كل الجهات ومن كل الأطراف. ترسخ في أعماقه يقين أكيد..

عند حرب الجميع ضد الجميع، فإنّ رأسه يظلّ مطلوباً من

الجميع!

طريق الحرير

تدور دائرة اليانغ والين⁽¹⁾ باستمرار، تتمزق الشرانق وتحلق الفراشات الملونة بعيداً في الزرقة الصافية.. ينسلّ خيط الحرير ويمتدّ من الصين إلى الصين عبر طريق الحرير ويلفّ جسد فاتنة العصور. تمسك في يدها كأساً زجاجيةً برّاقةً من فينيسيا ترتشف النبيذ الأحمر، وتمسح فمها البلوري بمنديل الشمس. فاتنة العصور ليست بباريس أو ببغداد أو ببكين، عيناها تستطيلان ببكين وتستديران ببغداد وتنعسان بباريس. فاتنة العصور في كلِّ حلم، في أية خفقةٍ عشقٍ، خارج خطوط المكان ودقات الزمان.. هي في كلِّ وجودٍ يتعامد فيه اليانغ والين.

تمتزج العناصر وتختلط الأشكال فتنبثق الأجساد. تتناغم الأصوات في الموسيقى فتتجسّد الروح.. الموسيقى ذلك النداء القديم.. النداء العميق للحب والحرب.. تتجمّع الأجساد بالحب وتتفرّق بالحرب⁽²⁾. حين يتعانق جسدان ويتقلبان لا شرق ينوح ولا

(1) ((يقوم التفكير الصيني منذ أقدم الأزمنة على النظر إلى الحياة والإنسان، والوجود بأكمله، على أنه نتاج حركة قوتين ساريتين في كل مظاهر الوجود، هما الـ "يانغ" والـ "ين"...))، ((إن فن الحياة ينبغي أن لا يقوم على طلب اليانغ واستبعاد الين، بل الحفاظ على حالة من التوازن بين القطبين، لأنه لا قيام لأحدهما إلا بوجود الآخر...)) كتاب التاؤ، ت. وشرح فراس السواح، ط1 1998، دار علاء الدين- دمشق، ص 9، 10.

(2) ((حياة الإنسان مدينة لتكتّل الـ تشي فإذا ما تفرّق، حدث الموت.)) هادي العلوي، المستطرف الصيني، دار المدى 2000، ص122. وعند أنبادوقليس يتجاذب الوجود بالحب ويتنافر بالبغض.

غرب يطغى، الشمال يستدير جنوباً والجنوب يتمدد شمالاً، يتناوبان فوق والتحت فتزدهر كلّ الجهات.. تشتبك الشفاه بالشفاه فوق قرص العسل، يساكن الجسد سواه بقوة ضمائر الوصل وتغيب ضمائر التملك. يتنافذ الحيّ بالحيّ ويعتصران الأشواق حتى يسيل رحيق الحياة. يخلع الحب أسمال الهويات وينزع أشواك الفروق ويُزيل حراشف التمايزات.. يرتدي الحرير فتنتشي الخلايا بأفراح الأعياد..

الحرب الأولى كانت حبا حين كانت الغنيمة قبلةً حميمة!..

لماذا أيها الشيخ الجليل هيجل؟! لماذا أوقفت الحضارة في برلين حصراً؟ ها قد انتزعها ناقمو أوربا (التفتيش) والتميز والحروب. رموا أعباء التاريخ ومآسيه خلف ظهورهم وتخفّفوا من أوزار الخرافة. حملوا أحلامهم وأبحروا خفافاً هرباً من تاريخ دام وعبروا الأطلسي إلى العالم الجديد. جغرافيا جديدةً بلا تاريخٍ مثقلٍ بالرزايا. أينع الحلم هناك على امتداد البراري وابتدأوا تاريخاً جديداً غير ملوثٍ بالخطايا..

لكن المأساة حدثت هناك أيضاً.. اقتل هنديةً واغرس وتدا.. تملك الأرض وما فوقها وما تحتها! وتلوث الحلم بالتملك الدموي.. كان الحلم بلا حدود والأرض ثرية بلا حدود والعقل بلا حواجز. لكنّ الكابوبي امتطى حصانه ومرّغ الحلم بالغبار والدم وخلق أسطورة تمييزٍ جديدة.. عقدة كلّ حضارةٍ وجرثومة كلّ سقوط. الحضارة التي ناطحت السحاب وتوغلت عالياً في الفضاء ووطأت تراب القمر، خُيل إليها أنها فوق البشر وأنها من جنس الآلهة.. جرثومةٌ استحلت دم الآخر، فأنحسرت في المحنة وأغرقها تاريخٌ

جديداً من العنف والدم.

الحضارة اليوم تستدير عائداً عبر الهادي إلى قارة الحكمة!!
فهل يستطيع (التاو) القديم أن يعلم الحضارة كيف تُنهي خصومة
العقل والعدل؟! وتنجو من جرثومة التمييز التي لوّثت سيرتها منذ
موهانجو دارو وسومر ووادي النيل والإغريق فأوروبا وأميركا..

العالم واحدٌ وصور الحضارة شتى.. والعشق واحد والعشاق
عديون. **والوجود موجودٌ لأنه لا يبدأ ولا ينتهي**⁽¹⁾. تغلق دائرة
الوصل مسيرة الحضارة وتُبدد وهم التفوق، يعود خيط الحرير
ممتزجاً بكل الألوان ومضمخاً بعطر البشر أجمعين. من امتزاج
العناصر واختلاط الأشكال، من تدرّج الألوان وائتلاف الأصوات،
يبدأ إنسانٌ جديدٌ رحلةً جديدةً في طريقٍ جديدٍ لحرير العشق. ينضو
عن جسده الملابس الضيقة لهويات الانتماءات المتوجّسة
وصراعاتها العدمية. هاجس الانتماء إلى جماعة، غريزة القطيع
المتوجّس من خطر الذبح والإبادة. العقل المتحرّر من وهم غريزة
القطيع، يتسلّى بسرد أساطير الأولين وقصص حروب الجماعات
ونزاعات الآلهة القديمة. ويندهش من تبيد الفوائض في حروب
الهيمنة وتشتيت الليبيدو في حقول الموت وحروب الأنا والآخر..!
في سطح الكرة كلّ نقطة هي ابتداء وانتهاء يلتقي الكلّ بالكلّ،
لا قهقهة تترقّع ولا دمعة تتوجّع! سنابل الحنوّ تكنس كدر الأرواح،
ونشوة الورد تبدد هوس العنف، وقزح العشق يبشّر بحلول العيد
البشري..

(1) ((قف قبلها.. لا ترّ بداية / كن بعدها.. لا ترّ نهاية))

هادي العلوي، كتاب التاو، دار المدى 2002، ص 62.

قريباً من البحر.. بعيداً عن النبع..

تدققتُ من سفح جبلٍ رمادي، ترققتُ بعذوبتي الصافية بين
الصخور العارية، شربتُ زرقة السماء حتى تلاأتُ كالبور
الجاري. عزفتُ بخيري أنغامي الهامسة تحت ظلال أشجار
البُلوط والجوز. كانت عرائسي تعانق خيالاتها وتراقص الضوء
المتسرّب من أعالي الأشجار.. دوائر فالسٍ وسوّرات هيامٍ
وكركرات فجرٍ.. هي البهجة تفرك عيونها وتستيقظ في الجانب
الشفيف من الوجود وتتجمل بمرايا الماء.. نزلت الصبية متجرّدةً
من لباسها الإنسي وغمرت جسدها في جسمي الشفيف. التمع
الحاباب على زغبتها الذهبي. دعكت رمانتيها ودعست زهرتيهما.
تسلّلت أناملها الوردية لتقرص زنبقتها الغافية، فتفتّحت وردةً قانيةً
في الأثل الكثيف... ذاك كان عرسي الأول.. تناثرت قطراتي
المتوهّجة مختلطةً بضحكاتها المتكسرة...

لكي تبعد فردوساً فجّر نبعاً.. واغمس حوريةً يانعةً فيه..!

ستغور أيها الماء في كدر التراب وستلتجئ هارباً إلى عروق
الأشجار. ستروي شفاه ظامئةً وتبلّل أطراف العشاق عند ضفافك،
أنى تتوجّه تطفئ جذوات الأشواق.. لكنك ستفقد عذريتك وستفتقد
صورتك العذبة الأولى..

أَنْ تَبْدَأَ يَعْنِي أَنَّكَ قَدْ تَوَرَّطْتَ فِي نَهَايَةِ مَا، وَأَنْ تُولِدَ يَعْنِي أَنَّكَ قَدْ اسْتَنْزَرْتَ شَهِيَّةَ الْمَوْتِ..

رَشَفْتَنِي الْبَلَدَةَ الْأُولَى بِنَهُمٍ وَصَلَاةٍ، وَلَوَّثَ جَدُولِي الصَّغِيرَ رِجَالٌ مَلْتَحَمُونَ بِحَيَوَانَاتِهِمْ، يَذْرُونَ الْقَشَّ عَلَيَّ وَيَمْرُجُونَنِي بِالْتَرَابِ وَيَمْلُطُونَ سَقُوفَهُمْ بِالطِينِ. حَمَلْتُ مَا حَمَلْتَ مِنْ أَوْسَاخٍ مَلَابِسَهُمْ، وَسَخَامِ قَدُورِهِمِ الَّتِي تَجْلُوهَا الْأَيْدِي الْخَشْنَةَ لِنَسُوتِهِمِ الْمَتَلَفَّعَاتِ بِالسَّوَادِ، تَفْرِكُنْهَا وَتَرْكُنْ مَوِيجَاتِي الْمَذْعُورَةَ بِأَقْدَامِهِنَّ الْمَتَشَقِّقَةَ. لَكُنَّنِي سَرَّبْتُ، سَرَّاءً، بَعْضَ عَذُوبَتِي إِلَى جُذُورِ الْعُشْبِ وَعُرُوقِ الْأَشْجَارِ السَّاهِمَةِ بِمَلِّ صَيْفِي..

قَدْ تَكُونُ الْخَسَارَاتُ فِي الْبَدَايَةِ طَفِيفَةً، لَكِنَّكَ مَا إِنَّ تَنْخَرُطَ فِي اللَّعْبَةِ، فَلَا فُرْصَةَ لَكَ فِي الْإِنْسِحَابِ مِنْهَا أَوْ كَسْبِهَا. فِي النِّهَايَةِ سَتَمْنَحُهَا زَهْوِكَ وَزَهْرَتِكَ مَقَابِلَ اللَّعْبِ.. وَشَهْوَةَ الرِّبْحِ سَتَجْعَلُ رَهَانَكَ عَلَى الْحِظِّ وَرِطَةَ عَمْرِكَ، وَخِيَاراً زَلِقاً سَيَزِحْلُقُكَ أَخِيراً، مَهْمَا وَبِمَا تَشَبَّثْتَ، إِلَى قَعْرِ سَكُونٍ مَعْتَمٍ.. مَا دَمْتَ قَدْ وُجِدْتَ فَعَلَيْكَ مَشَاغِلَةُ الْعَدَمِ كِي لَا يَبْتَلِعُكَ فُوراً وَدَفْعَةً وَاحِدَةً. عَلَيْكَ أَنْ تَمْطَّ وَجُودَكَ إِلَى عَتَبَةِ الْأَبَدِيَّةِ، رَغْمَ حَفْرَةِ الْغُرَابِ الَّتِي تَنْتَظِرُكَ. فَمَنْ يَنْهَمُكَ فِي شَهْوَةِ الْمَاءِ، سَيَبْتَلُّ وَيَذُوبُ حَدَّ التَّلَاشِيِّ. لَكِنَّهُ سَيَنْقُشُ أَهْوَاءَهُ فِي ذَاكِرَةِ الْأَشْيَاءِ، وَتَلْبَثُ أَشْوَاقُهُ كَامِنَةً فِي أَعْمَاقِهَا تَنْتَظِرُ لِحِظَةَ تَدْفُقِهَا الْعَارِمِ..

اصْطَحَبْتُ الْجَدَاوِلَ الْأُخْرَى وَمَضِينَا كَنْهَرٍ وَاثِقٍ إِلَى الْمَدِينَةِ، مَا زَالَتْ عَذُوبَتِي تَسْتَهْوِي الْعِشَاقَ وَالْأَشْجَارَ. لَمْ يَخْطُرْ بِيَالِي أَنْ

تُقابل هباتي وعطاياي للعالم الأخضر بهذا الجحود الأسود.. وتعود إليّ كالسيل الجارف من المخلفات والنفايات والزيوت والمياه الثقيلة! شعرتُ بالاختناق عند السطح فغطستُ إلى الأعماق. جرحتني شظايا الزجاج والقناني والمعادن الصدئة.. اعتقدتُ دوماً أنّ مائي يطفئ كلّ نارٍ ويغسل كلّ جرح. لكنّ بعض الحرائق وبعض الجروح بدّدتُ إيماني الساذج هذا.. غادرتُ المدينة مخذولاً ومحمّلاً بقذاراتها وبذاعاتها..

يفشو القبح المسلّح وينزوي الجمال الأعزل.. يرتجف خوفاً ويرتعش رعباً. يختبئ تحت جناح فراشةٍ أو يلوذ بظلّ وردة.. تنهار أعمدةٌ وتتهاوى صروحٌ. تتطاير الأرواح شظايا وبقايا أحلامٍ مهشّمة. تنفّلت الشياطين وتنطلق الجنّيات من هشيم الماضي وهشاشة الحاضر. يفرّ الجمال بعيداً عن قسوتكم وبشاعتكم ووحشيتكم. توصدون الأبواب وتغلقون النوافذ فمن أين لكم بضوء شمسٍ أو هبة نسيم؟ تحشرون المدينة بين الأمس والآن، تنتفون ريش الحمام وتطردون بفزاعتكم الشمطاء أسراب الحرية والسلام. دروبكم حمراء وسماؤكم حمراء وقلوبكم أسود. ما أنتم سوى ظلال أطيافٍ وأشباح موتى.. فكيف تطمحون بقبلة نجاةٍ والحب يهجر مدنكم والدخان يحجب سماءكم؟! أيّ نهرٍ سيتحمّل هوجكم ويغسل أدرانكم؟

يئستُ من البلدات الفظة والمدن الصغيرة التي لم تبلغ الرشد بعد. انحدرتُ والنهر العظيم نحو المدينة الكبيرة. استرجعتُ بعض

عذوبتي، ولجتُ المدينة عند الغروب. كان هدوء المساء وخفوت الضياء ينذر بليلٍ خبيث.. منذ نبعتُ وأنا أخشى الصمت وأخاف الظلام. لذتُ بحضن النهر منتظراً شمس الصباح..

لهذا أخشى الصمت وأخاف الظلام! فبعد منتصف الليل همهمتُ أشباحٌ ومرقتُ أطيفاً على ضفتي النهر، وقبل سقوط كلِّ جسمٍ في النهر كان يمزق الصمت والظلام صوت رصاصيةٍ قاتلة..! ضمنتُ نفسي إلى نفسي وابتعدتُ عن الضفتين واختبأتُ في أعماق النهر.. بدأ سائلٌ لزجٌ حامضي وملحي المذاق يتسرّب إليّ، تقيأتُ كلَّ عذوبتي. بين الحين والحين كانت ترفسني قدمٌ يائسة بقوةٍ، أو تعصرني أصابعٌ مستنجدة. قضيتُ ليلتي مع المزيد من الأجساد، والسوائل اللزجة ازدادت كثافتها وحموضتها وملوحتها.. انقطعتُ كلَّ صلاتي بالنبع وامتزجتُ بكيان النهر، سمعتُ الأسماك الساذجة تلوك نتفاً برائحةٍ نتنةٍ لأعضاءٍ بشريةٍ متحللة..

انتظرتُ الشمس بعد ليلة الرعب.. للضياء الكاشف وقع الصدمة المروعة أحياناً. كان ضياء الشمس يخترق بعناء الأجساد الطافية على السطح ليصل إلى أعماق النهر. نفرتُ ونزلتُ إلى القاع.. فهالني ما رأيتُ من بقايا الليالي القديمة.. كان قاع النهر مكتظاً بالجماجم والسلاميات الغاطسة منذ زمنٍ طويل. لم يكن بوسعي تحاشيها كلياً، كان لا بد لي من المرور من فك جمجمةٍ والخروج من قحفها المثقوب! والتملص بصعوبةٍ من بين أكوام

الجماجم والعظام..

هرب النهر بسرعة متجاوزاً هذه المدن الملعونة، كان يريد
الانصباب في البحر والتطهر بملحه..

لم يعد للعدوبة أي معنى..!

أي مكرٍ وأية سخريّةٍ مريرةٍ تجعل الكائن الأذكي يمتلك هذا
القدر من البطش والوحشيّة؟ وأي سرٍّ يمنحه هذه القدرة على
اجتذاب شرور الكون؟ الطيور والكلاب وكلّ الدواب تهرع
مفزوعةً لتفرّ من أماكنه المتفجرة.. يفحم كلّ قطعةٍ من العالم
الأخضر، ويلوّث كلّ قطرةٍ سائلةٍ من العدوبة ببشاعاته وقذاراته..
وخياله الخلاق يرفع صرّحاً عظيماً هنا ليحفر هاويةً من تعاسةٍ
وهولٍ هناك.. أي تناقضٍ يحركه وأية مفارقةٍ تلتهمه؟ لا يكفّ عن
الهديان: (إنني واقفٌ والعالم يمرّ بي، إنني خالدٌ والآخرون
يظهرون ويزولون.. الشمس تدور حولي وأنا مركزها.. أتمركز
باستمرار فسحقاً للهوامش والأطراف.. أنا المركز الخالد سأمكث
هنا إلى الأبد.. ومن حولي تدور وتمضي كل الكائنات
والأشياء..) ويظلّ يهذي ويهذي.. المركز حلمه ووهمه، يتجاهل
وجوداً حافلاً ومتنوّعاً بلا مراكز ولا هوامش، بلا نقطةٍ ولا
محيط.. الكل يكافئ الكل ويعانقه.. أية صدمةٍ ستوقظه وتخلّصه
من هذيانه ووهمه..؟

تدفقتُ تدفقاً حراً في عدوبتي الأولى، كنت أمّني النفس ألا
أرتكب حماقة الانحباس في نقطةٍ أو مستقيمٍ أو دائرة، وأن أتفادى

الغرور الهندسي! وأن أظلّ مستغرقاً في لانهاية أشكالي وطلاقتي
وانسيابي الخلاق.. لكنني انزلتُ إلى النهر، وكان ما كان من
رحلة فقدان ذاتي وتبدّد عذوبتي. ضيّعتُ عذوبتي وفقدتُ فجر
نبي البعيد.. كان البحر الشاسع يهدر بأواجه.. كان ينتظرني
كالقَدَر اللازوردي ليحتضن وجعي الأبدي.. فضلتُ أن يبتلعني
هوج البحر على أن يحتجزني رعب تلك المدن الملعونة
الموبوءة..

الملح هو الحل؟!!

نعم، الملح هو الحل ضد ذلك الوباء.. هذا الكائن الملحي
اللانهاية سيحفظني.. ويخلّصني بملحه ممّا علق بذاكرتي من
أهوال البشر وتحلّهم.

وكما أنّني لم أختَر ولادتي فإنّني سوف لن أشهد موتي..
سأنسى ما حلّ لي بعيداً عن النبع..

البحر.. البحر.. البحر..

البحر سينقذني.. إلى أن تلتقطني غيمةٌ ماء، وتزخّني من جديد
في نبعٍ جديد..

المحتويات

5.....	حول إيروس
7.....	ضفاف
10.....	أيها الرمادي
12.....	زيارة سرية
16.....	كائنات الخبر
19.....	الجثة
22.....	تفاحة أفلاطون
25.....	أسئلة
26.....	القناع
27.....	ليلة سقوط الدمعة
30.....	عالم ملقّق
32.....	البلورة السوداء
33.....	بحث
35.....	الخطيئة الأولى
37.....	الصخرة الرمادية
38.....	وجه مكسيم غوركي
40.....	لوحة وقصيدة

42.....	الملمثون
45.....	الغابة والشجرة
48.....	العودة إلى البيت 1
50.....	العودة إلى البيت 2
52.....	الفرجة
54.....	أيائل
55.....	تلويجة
56.....	الساعة
58.....	الثمرة
60.....	بريق
61.....	عشب أحمر
63.....	تقريظ اللحم
66.....	حكاية كل شتاء
68.....	سفر
70.....	توهم
71.....	خيال الماء
73.....	رهافة
74.....	حديقة أيقور
77.....	التوت الأحمر
79.....	أشياء صغيرة
81.....	نهر الجسد
83.....	ومضات

87.....	نصوص
89.....	سرب الجمال
91.....	القصب والطين
94.....	المدينة الحديثة
98.....	طريق الحرير
101.....	قريباً من البحر.. بعيداً عن النبع

رقم الايداع

في دار الكتب والوثائق

ببغداد 312 لسنة 2015

المرأة التي تسير
حفيف ألوانٍ وأجراس أعياد
تنثر حَبَّ السرور
وفي باحة الروح
يحطّ الحمام ويطير

(ضفاف)

.....

كلّما نظرتُ في المرأة
رأيتُ غريباً يحمل جثتي..
والنمل الزاحف يقوده
إلى تلك الحفرة الصغيرة
الحفرة التي تغلق السماء
وتتفتح على ظلمةٍ عدمٍ لامتناهي..

(الجثة)